سمكها ٢٣ بوصة . ثم صُغّرت هذه المدافع واتقن صنعها وبنيت من اسلاك الصلب فصار وزن بعضها ٣٢ طنًّا فقط ووزن قنبلته ٥٠٠ رطل ووزن البارود الذي تطلق به ٢٥٠ رطلاً وهي تخرق ما سمكهُ ٢١ بوصة من الحديد . والمدافع الكبيرة المستعملة الآن ثقل المدفع منها خمسون طنًّا وتخرق قنبلتهُ ما سمكهُ ٤٢ بوصة من الحديد الصاج . ومدفع ارمسترنج الذي قطر فوهتهِ ١٢ بوصة تخرق قنبلتهُ ما سمكهُ ٥١ بوصة من الحديد الصاج واطلاقهُ سهل جدًّا حتى يطلق مرتين كل دقيقة . والغالب ان يكون في البارجة من البوارج الحديثة اربعة من هذه المدافع الاخيرة واربعة مما قطر فوهتهِ ٩ بوصات و٤ او ٦ مما قطر فوهتهِ ٦ بوصات عدا المدافع الصغيرة جدًّا وانابيب الطربيد

ولا نبالغ اذا قلنا ان البارجة من بوارج هذه الايام بمثابة خمسين بارجة من البوارج التي كانت عند الانكليز والفرنسويين وقت معركة طرف الغار او من البوارج التي كان يبنيها محمد علي باشا . هذا ما صارت اليهِ السفن الحربية في المئة العام الماضية واكثر ما حدث فيها من التغيير انما هو في العشرين سنة الاخيرة ومَن يدري ما تصير اليهِ في المئة العام التالية

الاحتضارات والقبريّات

بقلم عيسى افندي اسكندر المعلوف مدرس آداب اللغة العربية والخطابة في الكلية الشرقية في زحلة (لبنان)

١

الاحتضارات

عثرت في اثناء مطالعتي على كثير من اقوال المحتضرين (من احتُضِر الرجل احتضارًا على المجهول اذا حضرهُ الموت فهو محتضر) عند العرب وغيرهم من العجم وقرأت مقالة باللغة الانكليزية ووقفت على بعض القبريات (ما يكتب على القبور) عند الفريقين فجمعت ذلك في هذه المقالة لعلها تروق في اعين القراء الكرام لما فيها من موارد الحكم ومراثي الاخلاق وغرائب العادات ومختلف الاعتقادات وبليغ العظات . ولقد اخترت من مختلف الروايات في كثير من النقول العربية ما يرفع عن القارىء الارتباك ولعلي اصبت المرمى فاقول

احتضارات العرب

كان يعرب بن قحطان جد العرب حكيمًا لبيبًا فلما حضرتهُ الوفاة احضر بنيهِ واوصاهم بقولهِ

"يابنيّ تعلموا العلم واعملوا بهِ واتركوا الحسد عنكم ولا تلتفتوا اليهِ فانهُ داعية القطيعة بينكم وتجنبوا الشرّ واهلهُ فان الشرّ لايجلب عليكم الّا الشرّ وانصفوا الناس من انفسكم فانهم ينصفونكم من انفسهم . واجتنبوا الكبرياء فانها تبعد قلوب الرجال عنكم وعليكم بالتواضع فانهُ يقربكم من الناس ويحببكم اليهم. واذا استشاركم مستشير فاشيروا عليهِ بما تشيرون بهِ على انفسكم في مثل ما استشاركم فيهِ . فانها امانة قد القاها في اعناقكم وانشأ يقول

أُوصيكم بما وصى أباكم أبوهُ عن أبيهِ عن الجدودِ
أذيعوا العلم ثم تعلموهُ فما ذو العلم كالغر البليدِ
ولا تصغوا الى حسدٍ فتغوَوا غواية كل مختبل (١) حسودِ
وذودوا (٢) الشرّ عنكم ما استطعتم فليس الشرُّ من خلق الرشيدِ
وكونوا منصفين لكل دانٍ لينصفكم من القاصي البعيدِ
وباب الكبر عنكم فاتركوهُ فان الكبر من شيم العبيدِ
عليكم بالتواضع لا تزيدوا على فضل التواضع من مزيدِ
وان الصفح افضل ما ابتغيتم بهِ شرفًا من الملكِ العتيدِ (٣)
وحق الجار لاتنسوهُ فيكم تنالوا كل مكرمةٍ وجودِ

وأوصى أبرهة ذو المنار ولدهُ عمرًا ذا الاذعار عند احتضارهِ بقولهِ : (تولى عمرو الملك قبل المسيح بثلاثين سنة)

يا عمرو انك ما جهلتَ وصيّتي إياك فاحفظها فإنك ترشدُ
يا عمرو لا والله ما ساد الورى فيما مضى الّا المعين المرفدُ (٤)
يا عمرو مَن يشري العُلى بنوالهِ كرمًا يُقال لهُ الجواد السيّدُ
كلُّ امرئٍ يا عمرو حاصد زرعهِ والزرع شيءٌ لا محالةَ يُحصدُ
واصل ذوي القربى وحُطهم إنهم بهم تُذِلُّ الأبعدين وتُكبِدُ

وقال مالك بن فهم اول ملوك العرب في الحيرة لما رأى سُلَيمة بن مالك يرميهِ بسهم قتلهُ بهِ :

جزاني لا جزاهُ الله خيرًا سُلَيمةُ إنهُ شرًّا جزاني
أُعلمهُ الرماية كل يومٍ فلما اشتدّ ساعدُهُ رماني

وقال مالك بن ريب التميميّ يرثي نفسهُ ويصف قبرهُ لما لسعتهُ الافعى واحس بالموت

(١) المختبل الفاسد العقل (٢) كفوا وادفعوا (٣) الحاضر المهيأ (٤) بمعنى المعين والمعطي

من قصيدة طويلة تعدّ من المراثي المشهورة عند العرب :

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلةً بجنب الغضا أُزجي[1] القلوص[2] النواجيا[3]

الى ان قال :

وأشقرَ خنذيذٍ[4] يجرُّ عنانهُ سوى السيفِ والرمحِ الرديني باكيا
ولم تراءت عند مروٍ منيَّتي وحلَّ بها جسمي وحانت وفاتيا
أقولُ لأصحابي ارفعوني فانني يقرُّ بعيني أنْ سُهيلٌ بدا ليا
ويا صاحبيَّ رحلي دنا الموتُ فانزلا برابية اني مُقيمٌ ليا ليا
أقيما عليَّ اليوم او بعض ليلةٍ ولا تعجلاني قد تبيَّن ما بيا
وقوما اذا ما استلَّ روحي فهيئا لي الصدرَ والاكفان ثم ابكيانيا
ولا تحسداني بارك الله فيكما من الارض ذات العرض ان توسعا ليا
وخطَّا بأطراف الأسنَّةِ مضجعي وردَّا على عينيَّ فضل ردائيا
خذاني فجرَّاني ببردي اليكما فقد كنتُ قبل اليوم صعباً قياديا
وقد كنتُ عطافاً إذا الخيلُ أدبرت سريعاً إلى الهيجا إلى من دعانيا
وقد كنتُ محموداً لدى الزاد والقرى وعن شتم ابن العمّ والجار وانيا

وهكذا الى آخرها وهي بليغة تثير العواطف

ولما حان ارتحال نزار بن معدّ الى الآخرة دعا باولاده الاربعة مُضَر وربيعة وإياد وأنمار بين يديهِ واوصاهم قائلاً " إعلموا يا اولادي اني راحل عنكم الى الآخرة . وما احضرتكم الاّ لاشرح لكم وصيتي فاحفظوا ما اقول لكم ولا تخالفوا وصيتي فيحلّ بكم الوبال " — قالوا : ما هي وصيتك يا ابانا — قال : " وصيتي لكم هي ان يوقر صغيركم كبيركم يا اولادي . اياكم والتكبُّر فانهُ مهلك الجبابرة . ما ولج بهِ احدٌ الاّ هلك . وفي غير طريق الحق سلك . يا اولادي اياكم والحسد . فانهُ يقلل الرزق ويذيب الجسد . والحسود لا يسود . ولا يموت الاّ مكمود . واياكم والطمع فانهُ يرمي صاحبهُ في البلاء والعذاب . والقناعة غناء . يا اولادي اياكم والبخل فيبعدكم من الله ومن الخلق . ومن هان عليهِ مالهُ . حسنت حالهُ . وسُمع مقالهُ . يا اولادي آسوا الناس بالطعام واكثروا البشاشة . وافشوا السلام . وصلوا بالليل والناس نيام . يا اولادي اياكم والكسل . فانهُ يورث الفشل . يا اولادي اياكم والغضب فانهُ يورث

(١) ادفع برفق وأسرق (٢) الناقة الشابة كالجارية من النساء (٣) جمع الناجية بمعنى السريعة ويقال انها للأنثى خاصةً (٤) الجيد من الخيل والنحل

السخط . والبشاشة في الوجه تورث المحبة وهي خيرٌ من القرى . ومن لانت كلمتهُ وجبت محبتهُ . يا اولادي لا تخالفوا وصيتي . واعلموا اني قد قسمت اموالي بينكم بالسويَّة . وجعلت قسم كل واحد منكم في كتابي هذا . فاذا وضعتموني في حفرتي وغابت عنكم جثتي . واتت العرب لعزائي فاذبحوا لهم من نعمي [1] . واذا تفرَّقت العرب عنكم فاعتمدوا على كتابي ووصيتي ولا تثيروا الحرب بينكم اه "

وقال عُبيد بن الابرص لما امر النعمان بقتله (نحو سنة ٦٠٠ م) وهو يتأهب لهُ :

ألا ابلغ بنيَّ واعمامهم بأن المنايا هي الواردهْ
لها مدَّةٌ فنفوس العباد اليها وإن كرهت قاصدهْ
فلا تجزعوا لحمام دنا فللموت ما تلد الوالدهْ
ووالله ان متُّ ما ضرَّني وان عشتُ ماعشتُ في واحدهْ

وقال يرثي نفسهُ :

يا حار [2] ما راح من قوم ولا ابتكروا الاَّ وللموت في آثارهم حادِ
يا حار ما طلعت شمسٌ ولا غربت الاَّ تقرَّبُ آجالٌ لميعادِ
هل نحن الاَّ كأرواح يُمَرُّ بها تحت التراب واجسادٍ كأجسادِ

واستنشدهُ النعمان قبل قتلهِ قصيدتهُ البائية الشهيرة التي مطلعها :

اقفر من اهلهِ ملحوبُ فالقطبياتُ فالذنوبُ [3]

الى ان قال :

وكلُّ ذي غيبةٍ يؤوبُ [4] وغائب الموت لا يؤوبُ
أعاقرٌ مثل ذات رحمٍ [5] او عائمٌ مثلُ من يخيبُ
من يسأل الناس يحرموهُ وسائلُ الله لا يخيبُ
بالله يُدرك كلُّ خيرٍ والقول في بعضهِ تلغيبُ [6]
والله ليس لهُ شريكٌ علاَّمُ ما أخفت القلوبُ
أفلح [7] بما شئتَ قد يبلغ بالضعف وقد يخدع الاريبُ [8]
لا يعظُ الناس من لا يعظ الدهرُ ولا ينفع التلبيبُ [9]

(١) ماشيتي (٢) ترخيم حارث (٣) ملحوب والقطبيات والذنوب اسماء اماكن فالاولى سم مياه لبني اسد بن خزيمة والثانية اسم جبل والثالث اسم موضع في ديار بني اسد (٤) يعود ويرجع (٥) الزلود وهي ضد العاقر (٦) ضعف وانك (٧) عش ويروى افلح بمعناها (٨) العاقل (٩) تكلف اللبّ من غير طبع فهي بمعنى التطبع

الاَّ سجيات ما القلوب وكم يُرى شانئاً [1] حبيبُ
ساعد بأرضٍ ان كنت فيها ولا تقل انني غريبُ
قد يُوصل النازحُ النائي وقد يُقطع ذو السهمة [2] القريبُ
والمرء ما عاش في تكذيبٍ طولَ الحياة له تعذيبُ

وهي طويلة اوردها صاحب شعراء النصرانية في صفحة ٦٠٥ فراجعها

ولما احتضر ذو الاصبع العدوانيّ دعا ابنهُ أُسيدًا فقال: "يا بنيَّ ان أباك قد فني وهو حيّ وعاش حتى سئم العيش واني موصيك بما ان حفظتهُ بلغتَ في قومك ما بلغتهُ فاحفظ عني: ألِن جانبك لقومك يحبوك . وتواضع لهم يرفعوك . وابسط لهم وجهك يطيعوك . ولا تستأثر عليهم بشيء يسوّدوك . واكرم صغارهم كما تكرم كبارهم يكرمك كبارهم . ويكبر على مودّتك صغارهم واسمح بمالك واحمِ حريمك واعزز جارك وأعن من استعان بك واكرم ضيفك واسرع النهضة في الصريخ فإنَّ لك اجلاً لا يعدوك [3] وصُن وجهك عن مسألة أحدٍ شيئاً فبذلك يتمُّ سؤددك . ثم انشأ يقول

أُأُسيدُ ان مالاً ملكت فسر به سيرًا جميلا
أُأُسيدُ ان أزمعت من بلدٍ الى بلدٍ رحيلا
آخِ الكرام ان استطعت الى إخائهم سبيلا
فاحفظ وان شط [4] المزارُ أخا أُخيك والزميلا [5]
واشرب بكأسهم وان شربوا بها السمَّ الثيلا [6]
واركب بنفسك ان همت بها الحزونة والسهولا
أُهنِ اللئام ولا تكن لإخائهم جملاً ذلولا
وصلِ الكرامَ وكن لمن ترجو مودّتهُ وَصولا
انَّ الكرام اذا تؤاخيهم وجدت لهم قبولا
ودع التواني في الأمور وكن لها سلسًا ذلولا
ودع الذي يعد العشيرةَ ان يسيل ولن يسيلا
ابنيَّ ان المال لا يبكي اذا فقد البخيلا
وابسط يمينك بالندى وامدُد لها باعًا طويلا
وابسط يديك بما ملكتَ وشيّد الحسب الأثيلا

(١) مبغضًا (٢) النصيب (٣) لا يجاوزك (٤) بعد (٥) الرفيق (٦) يظهرانها من الثمال وهو السمّ النقيع

واعزم اذا حاولت أمرًا يفرج الهمَّ الدخيلا
وابذل لضيفك ذات رحلك (١) مكرمًا حتى يزولا
واحلل على الأيناع (٢) للعافين (٣) واجتنب المسيلا
واذا القروم تخاطرت يومًا وارعدت الخصيلا (٤)
فاهصر (٥) كهصر الليث خضب من فريسته الثليلا (٦)
وانزل الى الهيجا اذا ابطالها كرهوا النزولا
واذا دعيت الى المهم فكن لفادحه (٧) حمولا

وقال دريد بن الصمة لما ادركهُ ربيعة بن رفيع السلمي وهم بقتله (سنة ٦٣٠ م)

فويح ابن امكة ماذا يريدُ من المُرعَش (٨) الذاهب الادردِ (٩)
فأقسم لو أنَّ بي قوةً لولت فرائصهُ (١٠) ترعدِ
ويالهف نفسي ان لا تكون معي قوَّة الشائخ الامردِ

ثم ضربهُ السلمي بسيفهِ فلم يغنِ شيئًا . فقال لهُ : "بئس ما سلحتك أمك . خذ سيفي هذا من مؤخر رحلي في القراب فاضرب وارفع عن العظام واخفض عن الدماغ (١١) . فاني كذلك كنت افعل بالرجال" . ففعل كما قال فوقع صريعًا

ولما حضرت عمرو بن كلثوم الوفاة وقد عمر قرنًا ونصفًا جمع بنيهِ فقال لهم : "يابنيَّ قد بلغت من العمر ما لم يبلغهُ احدٌ من آبائي . ولا بدَّ ان ينزل بي ما نزل بهم من الموت واني والله ما عيرت احدًا بشيء الاَّ عُيرت بمثلهِ ان كان حقًّا فحقًّا وان كان باطلاً فباطلاً فكفوا عن الشتم فانهُ اسلم لكم واحسنوا جواركم يحسن ثناءكم . وامتنعوا من ضيم الغريب واذا حُدِّثتم فعوا (١٢) واذا حدثتم فأوجزوا فان مع الاكثار تكون الاهذار (١٣) واشجع القوم العطوف بعد الكر كما ان اكرم المنايا القتل ولا خير في من لارويَّة لهُ عند الغضب . ولا من اذا عوتب لم يُعتِب (١٤) . ومن الناس من لا يرجى خيرهُ ولا يخاف شرهُ . فبكؤهُ (١٥) خير من دَرّهِ وعقوقهُ خير من بره اه"

(١) كناية عن المطية (٢) جمع يفع وهو المرتفع من الارض (٣) جمع عاف بمعنى الضيف (٤) جمع خصيلة وهي القطعة من اللحم (٥) اجذب وامل ومنها سمي الاسد الهصور (٦) العنق (٧) الامر المهم (٨) المرتعد او النسر قد هرم (٩) الذي ذهبت اسنانهُ كناية عن الهرم (١٠) جمع فريصة وهي لحمة بين الثندوة والكشح ترتعد عند الخوف (١١) كني بذلك عما بين الجذع والراس واراد العنق (١٢) من وعى اي حفظ (١٣) كثرة الكلام (١٤) لم عتبهُ وهمزتهُ للسلب (١٥) قليلهُ من بكأت الناقة اذا قل لبنها

وقال أُمية بن ابي الصلت لما اشتد عليهِ مرضهُ وقربت ساعتهُ : " قد دنا اجلي وهذه المرضة منيتي وانا اعلم ان حنيفية حق ولكن الشك يداخلني في محمد " ولما دنت وفاتهُ أُغمي عليهِ قليلاً ثم افاق فرفع رأسهُ فنظر حيال[1] باب البيت وقال

لبيكما لبيكما ها انا ذا لديكما

لا عشيرتي تحميني ولا مالي يفديني " . ثم أُغمي عليهِ ايضاً بعد ساعة احسَّ ظنَّ من حضرهُ من اهلهِ انهُ قد قضى . — ثم افاق وهو يقول :

لبيكما لبيكما ها أنا ذا لديكما

لا بريء فأعتذر . ولا قويٌّ فأنتصر . ثم انهُ بقي يحدّثُ من عندهُ ساعةً — ثم أُغمي عليهِ مثل المرتين الاوليين حتى يئسوا من حياتهِ وافاق وهو يقول :

ليكما ليكما ها أنا ذا لديكما

محفوف بالنعم

ان تغفر اللهم فاغفر جمًّا وايُّ عبد لك لا المًّا [2]

ثم اقبل على القوم فقال : قد جاء وقتي فكونوا في أُهبتي وحدَّثهم قليلاً حتى يئس القوم من مرضهِ وانشأ يقول

ان يوم الحساب يوم عظيمٌ شاب فيهِ [3] الصغير يوماً ثقيلا
ليتني كنت قبل ما بدا لي في رؤوس الجبال ارعى الوعولا
كلُّ عيش وان تطاول دهرًا منتهى امرهِ الى ان يزولا
اجعل الموت نصب عينك واحذر غولة الدهر ان للدهر غولا

ثم فاضت نفسهُ في نحو سنة ٦٢٤ م

وبينما كان امرؤُ القيس الشاعر عائدًا من بلاد الروم وصل انقره فاشتدَّ عليهِ فيها داء السلّ فلم يبرحها حتى أحتضر فقال مشيرًا الى قبر امرأةٍ من بنات الملوك في سفح جبل عسيب

اجارتنا انَّ الخطوب تنوب واني مقيمٌ ما اقام عسيبُ
اجارتنا انَّا غريبان ههنا وكلُّ غريب للغريب نسيبُ
فإن تصلينا فالقرابة بيننا وان تهجرينا فالغريب غريبُ

(١) قبالة وازاء (٢) المّ باشر الفم اي صغار الذنوب (٣) غير ظاهرة ولعلها شاب عنهُ اي دانع ولم يبالغ

ويروى لهُ قولهُ عند احتضارهِ ايضاً :

ألا أبلغ بني حجر بن عمرو ... وأبلغ ذلك الحيَّ الحديدا
باني قد هلكت بأرض قومٍ ... سحيقاً من دياركم بعيدا
ولو اني هلكت بارض قومي ... لقلتُ الموتُ حقٌّ لا خلودا
أعالج مُلك قيصرَ كل يومٍ ... وأجدر بالمنيَّة ان تقودا
بارض الشام لا نسبٌ قريبٌ ... ولا شافٍ فيُسعِدَ او يعودا
ولو وافقتهنَّ على أُسيسٍ ... وحاقةَ اذ وردنَ بنا ورودا
على قُلُصٍ تظلُّ مقلَّداتٍ ... أزمتهنَّ ما يعدقن[1] عودا
(توفي سنة ٥٢٩ م وقيل في غيرها) ستأتي البقية

الاتون الكهربائي

وعمل الماس والياقوت

اذا بلغت الحرارة درجة واحدة فوق الصفر اذابت الثلج وصيرتهُ ماء واذا بلغت مئة درجة أغلت الماء وصيرتهُ بخاراً . واذا بلغت ٣٢٦ درجة صهرت الرصاص وصيرتهُ سائلاً واذا بلغت ٩٦٠ درجة صهرت الفضة واسالتها واذا بلغت ١٠٦٢ درجة صهرت الذهب واسالتهُ واذا بلغت ١٠٨٠ درجة صهرت النحاس واذا بلغت ١٦٠٠ درجة صهرت الحديد وهي اشد حرارة يوصل اليها في الاتون الذي يوقد فيهِ الفحم ويجري فيهِ الهواء السخن بدل الهواء البارد . لكن من المعادن ما لا يصهر بهذه الحرارة كالبلاتين والاسميوم فلا يمكن صهرهُ في الاتاتين العادية . فان البلاتين لا يصهر الاَّ عند الدرجة ١٧٧٠ والاسميوم لا يصهر الاَّ عند الدرجة ٢٥٠٠ فكيف يمكن الوصول الى هذه الحرارة

لاحظ العلماء من عهد طويل انهُ اذا أُشعل الاكسجين والهيدروجين معاً تولَّدت من اشتعالها حرارة شديدة جداً فصنعوا من ذلك ما سمي بالبوري الاكسيهيدروجيني ورأوا ان الحرارة ترتفع فيهِ الى الدرجة ٢٠٠٠ فتذيب كل المعادن المعروفة ما عدا الاسميوم وهذه الحرارة تقارب حرارة باطن الارض التي اذابت المعادن وكوَّنت منها الحجارة الكريمة كالياقوت فان هذا الحجر الكريم يكاد يكون الومينا صرفاً والالومينا هو الطفال او الدلغان

(١) تروى هكذا والصواب يعرقن اي يفشرن من عرق اللحم عن العظم اي جردهُ